



الثورة السورية: خواطر ومشاعر (58)

حافظ وبشار والحمار

-1-

لما ثار أهل سوريا على بشار الأسد ذهب إلى أمه أنيسة وقال لها: أمي العزيزة، لقد ثار على أهل سوريا ولا أعلم كيف أحمد ثورتهم، ولكن أبي نجح في ذلك قبل ثلاثين ثلة عندما ثاروا عليه. أنا كنت يومها مراهقاً طائشاً أهيل ولم أتابع الأخبار بشكل جيد. أخبريني: كيف واجه الأزمة؟

قالت أنيسة: كل ما صنعه أبوك هو أنه ضرب بيد من حديد. لاحق الثوار فاعتقلهم وعذبهم وقتلهم، ومن فشل في اعتقاله اعتقل أخاه أو أباه أو عمه أو خاله أو حماه، ثم ضرب حماة بالمدافع وقصفها بالصواريخ فهدم منها ما هدم وقتل من أهلهما من قتل، وبعد ذلك لم يجرؤ على اعترافه أحد.

-2-

عاد بشار إلى مكتبه وضغط على الجرس فجاءه مدير مكتبه يسعي، قال له: أريد أن تجمع هنا رؤساء أجهزة المخابرات وكبار قادة الجيش والأركان، ولا تنس أن تحضر أيضاً زعماء الشبيحة والعصابات من أقاربنا وأبناء العم والخال. في المساء كان الكل حاضرين، فألقى فيهم بشار كلمة موجزة -على عادته- طولها خمس ساعات وخمسون دقيقة فقط، شرح لهم فيها تفصيات المؤامرة العالمية التي تتعرض لها البلاد وطلب منهم أن يواجهوها بأقصى عنف ممكن، فيطلقوا النار على المظاهرات، ويستهدفوا رؤوس الأطفال بالقناصات، ويعتقلوا المتظاهرين ويعذبوا حتى يموت بعضهم من العذاب، ولا بأس في حصار المدن والقرى واقتحامها واستباحتها نهباً وقتلاً واغتصاباً وترويعاً وتدميراً، وإذا فشل ذلك كله فما على قادة الجيش إلا أن يقصوها بالمدفع والدبابات.

-3-

بعد عشرة أشهر عاد بشار إلى أمه وقد كبر عشر سنين، قال لها منتخبًا: أمي، ثاعديني، لقد فشلت. لماذا نجح أبي في القضاء على ثورة الثوريين ولا أستطيع أنا ذلك؟ لقد كان الذين يتظاهرون ويهددون منادين بإعدامي ألفاً فصاروا ألفاً! كلما قتل

رجالـي منهم واحدـاً نـبت محلـه عشرـة. إن هـنـاقـاتـهـم تـقـرـاءـي لي في منـامـي إـذـا نـمـت وـتـطـنـنـ في أـذـنـي طـولـ النـهـارـ... أـكـادـ أـفـقـدـ عـقـليـ!

قالـتـ أـئـيسـةـ: ويـحـكـ، وهـلـ أـطـلـقـتـ النـارـ عـلـىـ النـاسـ وـقـتـلـتـ أـطـفـالـهـمـ وأـبـحـثـ لـكـلـابـكـ اـغـتـصـابـ نـسـائـهـمـ أـيـهـاـ الغـيـ؟

قالـ المـتعـوـسـ: أـلمـ تـقـوليـ ليـ إـنـ هـذـهـ هيـ الطـرـيقـةـ النـاجـحةـ؟

ـ لاـ يـاـ أـحـمـقـ. أـنـتـ سـأـلـتـنـيـ عـنـ الـذـيـ فـعـلـهـ أـبـوكـ وـأـنـاـ أـجـبـتـكـ. ذـلـكـ كـانـ يـوـمـ غـيرـهـ. ذـلـكـ كـانـ ثـورـةـ مـحـدـودـةـ فـيـ حـجمـهاـ وـفـيـ أـصـحـابـهـ، كـانـواـ بـضـعـةـ آـلـافـ لـمـ يـجـدـواـ فـيـ النـاسـ ظـهـيرـاـ وـلـاـ نـصـيرـاـ، فـاستـلـهـمـ أـبـوكـ مـنـ بـيـنـ النـاسـ وـقـتـلـ مـنـهـمـ مـنـ قـتـلـ وـغـيـبـ الـبـاقـينـ وـرـاءـ الشـمـسـ، وـلـمـ ثـارـ عـلـيـهـ حـيـّـ فـيـ حـمـةـ دـمـرـ نـصـفـ أـحـيـائـهـ عـلـىـ رـؤـوسـ أـهـلـيـهـ فـمـاتـ مـنـهـمـ عـشـرـاتـ أـلـوفـ فـيـ عـشـرـينـ يـوـمـاـ. الـذـينـ ثـارـواـ عـلـيـكـ الـيـوـمـ لـمـ يـكـوـنـواـ كـذـلـكـ، الـذـيـ ثـارـ عـلـيـكـ هوـ شـعـبـ سـورـيـاـ الـعـظـيمـ أـيـهـاـ السـقـيمـ، أـمـاـ عـلـمـتـ إـنـ الشـعـوبـ إـذـاـ انـفـجـرـتـ لـمـ تـقـوـيـهـ قـوـةـ فـيـ الـأـرـضـ، وـلـمـ يـصـلـحـ لـهـ إـلـاـ السـيـاسـةـ وـالـاحـتوـاءـ وـالـسـرـضـاءـ وـوـحـسـنـ التـدـبـيرـ؟ كـانـ عـلـيـكـ أـنـ تـعـرـفـ خـصـمـكـ قـبـلـ أـنـ تـسـتـعـمـلـ السـلاـجـ. أـمـاـ قـرـأـتـ وـأـنـتـ صـغـيرـ قـصـةـ الـحـمـارـ؟

قالـ المـتعـوـسـ: ذـكـرـيـنـيـ بـهـاـ يـاـ أـمـاهـ.

قالـتـ أـئـيسـةـ: فـاتـ الـأـوـانـ، وـمـعـ ذـلـكـ اـسـمـعـهـاـ. كـانـ لـرـجـلـ مـنـ الرـجـالـ حـمـارـانـ يـحـمـلـ عـلـيـهـمـ الـأـحـمـالـ، فـحـمـلـ أـحـدـهـمـ ذـاتـ يـوـمـ جـمـلـاـ مـنـ الـمـلـحـ وـرـبـطـ عـلـىـ ظـهـرـ الثـانـيـ كـوـمـةـ عـظـيمـةـ مـنـ إـسـفـنـجـ، وـفـيـ الطـرـيقـ مـرـ الـحـمـارـانـ بـحـذـاءـ نـهـرـ، فـفـقـرـ الـأـوـلـ فـيـ المـاءـ فـذـابـ الـمـلـحـ وـخـرـجـ يـتـقـافـزـ خـفـيـطاـ نـشـيـطاـ، فـلـمـ رـآـهـ صـاحـبـهـ حـسـدـهـ وـقـالـ لـنـفـسـهـ: لـمـاـذـاـ لـاـ أـصـنـعـ مـثـلـ مـاـ صـنـعـ صـاحـبـيـ فـأـرـتـاحـ مـنـ حـمـلـيـ كـمـاـ اـرـتـاحـ مـنـ حـمـلـهـ؛ ثـمـ قـفـزـ فـيـ النـهـرـ فـلـمـ يـُـطـقـ الـخـرـوجـ، فـإـنـ إـسـفـنـجـ شـرـبـ المـاءـ حـتـىـ صـارـ وـزـنـهـ ثـلـاثـةـ أـطـنـانـ، فـسـاخـتـ فـيـ قـعـ النـهـرـ قـوـائـمـ الـحـمـارـ، وـمـاـ زـالـ يـغـوصـ حـتـىـ اـبـتـلـعـهـ المـاءـ.

كانـ بـشـارـ فـيـ تـلـكـ اللـحـظـةـ قـدـ جـمـدـ مـنـ الرـعـبـ، وـراـحـ يـنـظـرـ إـلـىـ أـمـهـ بـعـيـنـيـنـ شـارـدـتـيـنـ وـهـوـ يـتـخـيلـ نـفـسـهـ حـمـارـاـ غـارـقاـ فـيـ النـهـرـ قـدـ أـوـقـرـهـ جـمـلـ ثـلـاثـةـ أـطـنـانـ مـنـ إـسـفـنـجـ الـمـشـبـعـ بـالـمـاءـ، وـكـانـ آـخـرـ مـاـ سـمـعـهـ قـبـلـ أـنـ يـقـدـ وـعـيـهـ مـنـ الـخـوـفـ هوـ كـلـمـاتـ أـمـهـ الـأـخـيـرـةـ: لـمـاـذـاـ لـمـ تـعـرـفـ عـلـىـ خـصـمـكـ قـبـلـ أـنـ تـبـدـأـ بـمـوـاجـهـتـهـ؟ لـمـاـذـاـ اـسـتـعـدـيـتـ شـعـبـ سـورـيـاـ الـعـظـيمـ؟ أـظـنـتـ وـيـحـكـ. أـنـكـ تـقـفـ فـيـ وـجـهـ إـلـعـصـارـ الـجـبـارـ إـذـاـ ثـارـ؟ لـمـاـذـاـ لـمـ تـقـرـأـ قـصـةـ الـحـمـارـ يـاـ حـمـ.....ـ؟

مـلـاحـظـةـ: لـاـ يـقـعـ فـيـ وـهـمـ أـحـدـ أـنـ أـئـيسـةـ أـقـلـ غـبـاءـ مـنـ وـلـدـهـاـ، وـإـنـماـ أـجـرـيـتـ عـلـىـ لـسـانـهـاـ الرـأـيـ الـحـكـيمـ لـضـرـورةـ السـرـدـ الـفـنـيـ للـقـصـةـ، وـإـلـاـ فـمـنـ أـيـنـ وـرـثـ بـشـارـ بـلـاهـتـهـ الـتـيـ صـارـتـ مـضـرـبـاـ لـلـأـمـثـالـ؟ وـمـنـ شـاءـ فـلـيـقـرـأـ مـقـالـةـ: "لـمـاـذـاـ لـمـ يـفـعـلـوـاـ؟" الـتـيـ نـشـرـتـهـاـ قـبـلـ سـنـةـ إـلـاـ يـوـمـاـ (18/5/2011).

المـصـدـرـ: الـزلـزالـ السـوـريـ

المـصـادـرـ: